الذوق الفنى فى البيت

بقلم حضرة صاحب السعادة توفيق دوس باشا

ما زرت أسرة أوروبية إلا وجدت فى بيتها من الأثاث ما يعد بعضه تحفا فنية تستحق أن نقف أمامها ونتأملها معجبين . وليس هـذا شأن بيوت الأثرياء وحدهم ، فان المتوسطين كثيرا ما يكلفون أنفسهم اقتناء التحف الفنية لتزيين بيوتهم حتى ليستحيل البيت متحفا صغيرا أنيقا . ورب البيت أو ربته تروى لك قصة تاريخية عن هذه الزهرية القديمة التى قد يبلغ ارتفاعها مترا ، فتذكرك المصنع الذى خرجت منه والفنان أو المثال الذى صنعها . وأنها لم تشترها وإنما اشتراها جدها قبل خمس وسبعين سنة وقد ورثتها عن عمتها . أما هذا الكرسى فقد صنع فى القرن السابع عشر وهو من طراز معين لا تصنع الكراسى على غراره الآن . وكذلك هذه الرسوم وهذه التماثيل وهذه الأوانى. بل أحيانا يزداد التأنق والترف فتجد إحدى الغرف وقد كسيت جدرانها كلها أو بعضها بخشب السنديان القديم الذى أكسبه القدم طابعا وتاريخا . وهكذا الشأن فى الكتب تقتنى لا لتقرأ فقط بل لكى تصان فى البيوت كأنها بعض أثاثه الفاخر . ولذلك فصاحبتها تختير الطبعة وتشترى القديم منها .

وهذا الروح الذى يملى اقتناء الطرف فى البيت ويكاد يحيل المنزل متحفا ، هذا الروح يدل على التعلق بالحياة البيتية وعلى إدراك تاريخى لقيمة البيت ، وعلى إيثار المصلحة العائلية على المصلحة الشخصية . فإن أحدنا حين يشترى صورة أو تمثالا ، أو حين يزين البيت وينفق على تجميل جدرانه وأبوابه وأثاثه إنما يفعل ذلك وهو ينظر نظرة شاملة للعائلة فتمثل له سلسلة الآباء فالأبناء فالأحفاد . وهو يأخذ بأسلوب فى السلوك يتفق وهـذا النظر . فان البيت الجميل المتين لا يضم عادة إلا عائلة جميلة موطدة الصلات بالحب ، قائمة على التعاطف والتراحم ، يأتنس أعضاؤها بالاجتماع والحديث فلا يخطر ببال أحدهم أن ينفرد فى أنانية ويقصـد إلى الملذات الخارجية حيث يقضى فراغه فى القهوة أو فى النادى . ذلك لأن الروح الذى بعثه على تجميل البيت والتأنق فى اختيار أثاثه وطرفه إنما هو الروح العـائلى الاجتماعى الراقى لا الروح الشخصى المـادى . ولذلك ليس ينتظر من الزوج الذى ينزع هذه النزعة الفنية فى بيته إلا أن يكون زوجا أمثل يتجه همه وهمته معا إلى توطيـد السعادة المنزلية ومشاركة الزوجة فى تربية الأولاد والسعى لنجاحهم وتفوقهم .

وهـذا الروح نجده أحيانا فى بعض بيوتنا . فان التأنق فى بناء المنزل الخاص واقتناء الأثاث والأدوات الفضية وأحيانا بعض الكتب القديمة المخطوطة ، كل هذا يدل على روح عائلى اجتماعى . ولكننا تعودنا أن نتزع إلى العدد أكثر مما نتزع إلى النوع . فالأثاث يكثر ويتكدس ويغلو فى الثمن دون أن يتنوع أو يسمو فى الجودة والاناقة. ومعظم أفراد طبقتينا ، المتوسطة والعالية ، لم يتعلم إلى الآن النظر إلى البيت هذه النظرة الفنية .

نزور بيت الوجيه المصرى الثرى فنرى الأثاث عديد القطع قد زحمت به الحجرات ، وقد يكون من القماش الفاخر والنوع الغالى ، ولكن ينقصه الذوق الفنى وحسن التنسيق ، ونضطر عندئذ إلى المقارنة بين بيوتنا وبيوت الأوروبيين فنجد هنا فرشا تكاد تتحدث بثمنها وثروة صاحبها ، وتجد هناك فرشا تكاد تنطق بحسن ذوق الذى اشتراها وجمعها ومبلغ تقديره للفن والجمال ، نجد هنا المال والبذخ فى الحرير والخشب والطلاء ، ونجد هناك الذوق الحى ولو مع القماش الرخيص ، وبينما تصطف الأرائك والكراسى عندنا فى حجرة الضيوف إلى جوانب الجدران فى شكل رتيب لا يتغير ، تهندم ربة البيت الأوربى غرفة الاستقبال فى شكل يسمح للزائرين أن ينقسموا جماعات للسامرة بحيث لا يختلط حديث هذه الجماعة بحديث غيرها . وهـذا شأننا أيضا فى الطعام : نكدس المائدة بألوان كثيرة دسمة ولكننا ننسى أن نضع الزهرية الجميلة تزدان بالزهور النضرة تبعث الحياة والبشر والجمال فيما حولها .

ما دخلت بيتا من بيوت أعيان الجاليات الأجنبية فى مصر إلا ألفيت كل شىء على المائدة يكاد يكون تحفة تسر العين وتشبع الذوق . فهذا طبق من سيام ، وهـذه ثريا من اليابان ، وهذه أكواب من ألمانيا ، وهذه الطنفسة المفروشة من شيراز ، وهذه السجادة التى تغطى جزءا من الحائط من فلاندر . كل شىء رائع يلفت النظر وينطق ببهائه ويملأ النفس ارتياحا وبهجة .

وإنه لمما يوجب دهشة المصرى أن تحفنا الشرقية الجميلة التى كانت شائعة بيننا الى عهد قريب ، لا يزال الأجانب يقتنونها ويزينون بها منازلهم وإن كانوا لا يستعملونها لخدمة الضيوف. فالطست والإبريق الفضيين وصينية القهوة بفناجينها وظروفها النحاسية (الشفتشى) والمشربيات وغيرها توجد حتى اليوم بين التحف التى يقتنيها الأجانب هنا وفى بلادهم لأنها تمثل طرازا شرقيا يستطرفونه . أما نحن فقد هجرناها وصرنا لا نتهافت إلا على الغالى مهما انعدم فيه الفن والذوق .

ولكن يجب ألا ننسى العوامل الاقتصادية التى جعلت البيوت الأوربية تكاد تشبه المتاحف. فإن الاطمئنان الاقتصادى على مدى أجيال متوالية هو الذى هيأ الظروف لهذه الحال . واكثر البيوت تحفا فى الأقطار المتمدنة هو البيت الانجليزى . وهذه الحقيقة تشير إلى ألف سنة من السلام و إلى حياة شعبية آمنة من الاضطرابات الاقتصادية .وهذه الحال بالطبع قد تزعزعت

بعض الشيء بالحرب الكبرى الماضية والحرب القائمة ، كما أن الاضطرابات الاقتصادية قد جعلت كثيرا من التحف الأوربية يتسرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

والبساطة فى المعيشة قيمتها ، ولكن يجب ألا تكون هذه البساطة ثمرة انعدام الذوق الفنى . فقد كان ماركوس او ريليوس الامبراطور الرومانى يحب البساطة ويقول إن السعادة هى كسرة من الخبز وقطعة من الجبن فى حديقة ساكنة . ولكنه كان مع ذلك يعيش فى رفاهية ذهنية وترف فنى نرى أثرهما فى مخلفاته القلمية .

والبيت نواة المجتمع . وليس المجتمع العصرى بسيطا ولاساذجا . ومهما يختلف رأينا فى قيمة البساطة من حيث الطعام والشراب واللباس فإننا لانستطيع أن نقول بها فى المسكن والاثاث وإلا لكان حسبنا منها خيمة أو خصا أو كوخا ، وهذا ما لانستطيعه .

وبيوتنا يجب أن تكون أندية راقية لأفراد العائلة ، كما يجب أن تكون مدارس محببة للصغار . أولئك يأتنسون فيها بالحديث والتسلية وهؤلاء يتعلمون فيها ويتربون . ثم يجب أيضا أن تكون متاحف تغذى الروح وتوحى الى الذهن ايحاءات سامية مفيدة . وليست الفنون والقدرة على الاستمتاع بها مما يورث مع الدم . ولذلك ترانا فى حاجة إلى ان نتعلم ونألف الفن مدة طويلة حتى نستطيع أن نرتفع فوق "الطقاطيق" التى يطرب لها السذج من العامة ، وفى حاجة إلى تربية وتدريب لكى نتذوق اللحن السامى والرسم الرائع بل الأدب الرفيع سواء أكان قصة أم قصيدة أم دراما ، إذ هذه كلها أشياء لا يمكننا أن نتذوقها من غير ألفة سابقة . فاذا كان البيت الذى نشأنا فيه يعيش أعضاؤه المعيشة الفنية ويحاطون بصور وصيغ مختلفة راقية من الفنون فإننا ننشأ على هذا المستوى وقد نرتقى إليه . بل إننا عندئذ لا ننظر إلى الفنون نظر المتفرجين المستمتعين وإنما نستوحى منها ذوقا اجتماعيا سليما نحاول أن ننشره فى كل ما يحيط بنا ، حتى الشارع أو الميدان الذى تطل عليه نوافذنا نريده نظيفا حسن التنظيم والتنسيق . كما أن السليقة الفنية التى تنمو فى نفوسنا تحملنا دواما على أن ننشد الصحة والجمال والشرف والذكاء فى الأسرة وفى الأمة ، لأن لكل هذه الصفات بواعث تمت الى الفنون بأكثر من سبب .

والفنون هى خير ما تتسامى إليه الطبيعة البشرية . ولهذا يجمل بنا أن يكون كل منا فنانا فى ناحية ما من نواحى الفن حتى يستطيع بممارسة الفرع الذى يحب منه أن يجد التفريج والتنفيس لما يضيق به من قوة فائضة أو فراغ عاطل أو أزمة نفسية . ولو كانت بيوتنا حافلة بالموسيقى والرسوم والتماثيل ، مزودة بالكتب مزينة بالطرف ، لكانت ألفتنا لهذه الأشياء توجهنا وتعين لنا سلوكا فنيا فى الحياة . ولنشأ أطفالنا فى مثل هذا الوسط ولهم ميول فنية تنبه أرواحهم وتسمو بأفكارهم فلا يخشى عليهم مفسدة الفراغ ولا الوقوع فى سحر الخمر ولا الجشع الذى يدفعهم إلى المقامرة ولا النهم فى الطعام — هذا النهم الذى يجعل كثيرا منا يبلغون الشيخوخة فى سن الأربعين ما

توفيق دوس